المعلمون والمدرسة في الفكر التربوي للبشير الإبراهيمي

(كما جاءت في عيون البصائر)

أ. بوجمعة سلام
جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)

" إن الذي يدير مدرسة ، يدير مستقبل البلاد"**-بسمارك-**

Abstract :

The school represents an important issue in the work of Bachir Al Ibrahimi; it is not only an essential tool for protecting society from many social problems such as illiteracy, poverty and illnesses, but it is as well a source of development and progress for any society.

The role of the school cannot be completed without the presence of the teacher, who is competent and loyal, and ready to sacrify for his society.

Key words: school, teachers, development and progress

مقدمة:

كان يكتب على باب كل مدرسة في الأندلس الزاهر حكمة بليغة وهي: أن الدنيا تقام على أربع قوائم:علم الأفاضل، عدل الأكابر، جلال الشجعان ودعاء الصالحين.

طبقت هذه الحكمة فأصبحت الأندلس دار العلم والعلماء والتجارة والصناعة والفنون وبلغت مبلغ ما كانت تحلم به أوروبا أو أمريكا في ذلك الوقت، وخرجت من التاريخ بتاريخ 1492م عندما تخلت عن هذه الحكمة.

لقد أدركت جمعية العلماء المسلمين هذا الدور للمدارس والمدرس، حيث يقول البشير الإبراهيمي: "حياة الأمم في هذا العصر بالمدارس، ما في هذا شك ، إلا في قلوب ران عليها الجهل، وغان عليها الفساد، ونفوس ختم عليها الضلال، وضرب على مشاعرها المسخ، وطال عليها الأمد في الرق، فصدئت منها البصائر، وعميت الأبصار، فتغير نظرها في الحياة ووسائلها، فرضيت بالدون، ولاذت بالسكون" .

إن المدرسة كما تقول التربويات المعاصرة هي: "مؤسسة تنشئة اجتماعية أنشأها المجتمع لنقل المعارف والمهارات والسلوكات " .

حيث تسعى هذه المدرس لتحقيق غايات ومرامي وأهداف الأمة، ومما لا شك فيه أن المعارف والمهارات والسلوكات، متجددة ومتطورة ومتغيرة ومستمرة، بحاجة للنقل وبحاجة إلى الصقل والتطوير لمواكبة العصر وتلبية الحاجات النفسية والاجتماعية.

إن البناء المدرسي أو بناء المدارس هو بناء للمنفعة الدينية والدنيوية، " والأمم تتفاضل وتتعالى بالبناء للخير والمنفعة والجمال والقوة، وما عدا هذه الأربعة فهو فضول عابث، لا يدخل في قصد العقلاء، وقد بنى أسلافنا لكل أولئك مجتمعة ومتفرقة، بنوا المساجد مظهرا للخير، وشادوا المدارس مظهرا للمنفعة، وأعلوا الحصون مظهرا للقوة وسمكوا القصور مظهرا للجمال، فضموا أطراف الفخر، وجمعوا حواشي المجد، وحازوا آفاق الكمال، وقادوا الحياة بزمام، وأنشؤوا بذلك كله للحضارة الإنسانية نموذجا من المدينة الفاضلة التي تخيلها حكماء اليونان، ولم يحققها ساسة يونان، وإنما حققها من ساد بالعدل، وقاد بالعقل، وأولئك آبائي!! "

فنموذج المدارس في الدولة الأموية في الشام والأندلس ونموذج المدارس في الدولة العباسية في العراق لم يغب عن بال رواد جمعية العلماء. والمدرسة تقام وتدور رحاها بواسطة المعلمين المخلصين الجادين العالمين العاملين .

"أما دعائم هذا البناء التي تمسكه أن يزول، وتصونه أن يختل أو يحول، فهم أشبال الغاب، وحماة الثغور، عمار المدارس، وسقاة المغارس، مربو الجيل وأئمته، أبناؤنا المعلمون المستحقون لأجر الجهاد وشكر العباد، الصابرون على عنت الزمان، وجحود الإنسان، وكلب السلطان، المقدمون على كثرة الخوان، وقلة الأعوان، جيش الحق، وحاصة(*) الشق، وألسنة الصدق" .

إن الغايات التي يريدها الإبراهيمي من المعلمين أن ينقلوها ويثبتوها في نفوس النشء أبناء الأمة وأفلاذ أكبادها ، هي: "أن يديروا نفوسهم على الدين وحقائقه، وألسنتهم على اللسان العربي ودقائقه، ويسكبوا في آذانهم نغمات العربية، وفي أذهانهم سر العربية، ويديروا أرواحهم بالفضيلة والخلق المتين" .

فالإبراهيمي يركز على : الدين الصحيح والقويم، واللسان العربي الفصيح، والأخلاق الفاضلة. هذه الغايات لا تتم إلا بعد أن تجتثوا (الكلام موجه للمعلمين) من نفوسهم بقايا آثار المنزل الجاهل، والأب الغافل، وتقودوهم بزمام التربية إلى مواقع العبر من تاريخهم، ومواطن القدوة الصالحة من سلفهم، ومنابت العز من مآثر أجدادهم الأولين واجعلوها مقدمة على البرنامج الآلي في العمل والاعتبار وفي السبر والاختبار" .

إن الشيخ الإبراهيمي يدرك أهمية البيت الجاهل أو قل الأب والأم لذلك يطلب من المعلمين القيام بالإخلاء قبل الإملاء كما يقول المتصوفون أو أن آثار الخبرة والتعلم تعمل عملها في الحاضر لذلك لا بد من التصحيح أولا ثم الإرشاد إلى مواطن الخير والعبرة والقدوة الصالحة.

ويقدم الإبراهيمي السلوكيات على المعارف أو الجانب الخلقي على الجانب المعرفي، حيث يرى أن فقر الأمة ومصيبتها في أخلاقها أكبر من علمها، لذلك قدم التربية على التعليم،" واحرصوا كل الحرص على أن تكون التربية قبل التعليم، واجعلوا الحقيقة الآتية نصب أعينكم، واجعلوها حاديكم في تربية الجيل الصغير، وهاديكم في تكوينه، وهي :

أن هذا الجيل الذي أنتم منه لم يؤت في خيبته في الحياة من نقص في العلم، وإنما خاب أكثر ما خاب من نقص في الأخلاق، فمنها كانت الخيبة، ومنها كان الإخفاق ."

كما يقرن الإبراهيمي العلم بالعمل، ويرى تمام ذلك بالقدوة الصالحة من المعلمين .

" ثم احرصوا على أن يكون ما تلقونه لتلاميذكم من الأقوال، منطبقا على ما يرونه ويشهدونه منكم من الأعمال، فإن النشء الصغير مرهف الحس، طُلْعة إلى مثل هذه الدقائق التي تغفلون عنها، ولا ينالها اهتمامكم. وإنه قوي الإدراك للمعايب والكمالات، فإذا زينتم له الصدق فكونوا صادقين، وإذا أحسنتم له الصبر، فكونوا من الصابرين، واعلموا أن كل نقش تنقشونه في نفوس تلامذتكم من غير أن يكون منقوشا في نفوسكم فهو زائل، وأن كل صبغ تنفضونه على أرواحكم من قبل أن يكون متغلغلا في أرواحكم فهو لا محالة ناصل حائل، وإن كل سحر تنفثونه لاستنزالهم غير الصدق فهو باطل، ألا إن رأس مال التلميذ هو ما يأخذه عنكم من الأخلاق الصالحة بالقدوة، وأما ما يأخذه عنكم بالتلقين من العلم والمعرفة فهو ربح وفائدة .

(*) جمع حائص، وحاص الثوب خاطه وجمع أطرافه بالخيط

وبروح الأب الشفوق يوصي الإبراهيمي المعلمين الوصايا التالية:

1- أوصيكم بتقوى الله في العدة في الشدائد والعون في الملمات، وهي مهبط الوحي والطمأنينة، وهي متنزل الصبر والسكينة، وهي مبعث القوة واليقين، وهي معراج السمو إلى السماء، وهي التي تثبت الأقدام في المزالق، وتربط على القلوب في الفتن .

2- وأوصيكم بالرفق والأناة في أموركم كلها، وبخفض الجناح للناس كلهم، وباتقاء مواطن الشبه، واجتناب مصارع الفضيلة، وما أكثرها في وطنكم هذا، وبإجرار الألسنة عن مراتع الغيبة والنميمة، وفطمها عن مراضع اللغو واللجاج فهي - لعمري- مفتاح باب الشر، وثقاب نار للعداوة والبغضاء.

3- وأوصيكم بالابتعاد عن هذه الحزبيات التي نجم بالشر ناجمها، وهجم – ليفتك بالخير والعلم- هاجمها، وسجم على الوطن بالملح الأجاج ساجمها، إن هذه الأحزاب كالميزاب، جمع الماء كدرا، وفرقه هدرا، فلا الزلال جمع ولا الأرض نفع.

4- وأوصيكم بحسن العشرة مع بعضكم إذا اجتمعتم، وبحفظ العهد والغيب لبعضكم إذا افترقتم، إن العامة التي ائتمنتكم على تربية أبنائها تنظر إلى أعمالكم بالمرآة المكبرة، فالصغيرة من أعمالكم تعدها كبيرة، والخافتة من أقوالكم تسمعها جهيرة ،فاحذروا ثم احذروا.....

إن هذه الخطوط التي يرسمها الإبراهيمي للمعلمين هي التي تحفظ رسالة المعلم وتجعله في مقام القديسين والرسل أو في عالم المثل، فالإخلاص في العمل من التقوى، والرفق والأناة من خوف الله وطاعة أوامره وتجنب نواهيه، والابتعاد عن الأحزاب هو حفظ الأمة وللمدرسة من التشرذم. وحسن العشرة ومراقبة الأعمال تورث الذكر الحسن وهي عمر ثان.

وفي الوصية الرابعة يدرك الإبراهيمي أن المعلم قدوة للصغير كما هو قدوة للكبير سواء في مجال العلم والأخلاق وهما غير منفصلان، وما التربية إلا ما ينقله الكبار إلى الصغار أو الآباء إلى الأبناء أو الأجداد إلى الأحفاد من معارف ومهارات وقيم وأخلاق، لذا يضيف الإبراهيمي :

"أخشى أن تغيب عن بصائركم حقيقة ثابتة، وهي أنكم معلمون للصغار،وأئمة للكبار، أولئك يأخذون من أخلاقكم وعلمكم، وهؤلاء يأخذون من أخلاقكم، فإذا راعيتم الجانب الأول، واعتقدتم انكم معلمون للصغار، وحسب المعلم أن يؤدي وظيفته أداء آليا، وأغفلتم الجانب الثاني فلم تبالوا بما يأخذونه منكم من استقامة، واعوجاجا كان ضركم أكثر من نفعكم، وإن الذي يلوح لي من تتبع أعمالكم وتقصي أحوالكم، أن كثيرا منكم عن هذه الحقيقة غافلون"

فأين هذا من معلم اليوم الذي يعتقد أن دوره هو التعليم فقط وفي المدرسة وللصغار ودون ذلك لا يهم.

إن الشيخ الإبراهيمي يرى في المعلمين "حراس هذا الجيل الجديد، والمؤتمنون عليه، والقوامون على بنائه"، لذلك نراه يخاطبهم "فأنتم بناة عقوله ونفوسه، فابنوا عقوله على أساس من الحقيقة، وابنوا نفوسه على صخرة من الفضائل الإنسانية ،وأشربوه عرفان قيمتها ،فإن من لم يعرف قيمة الثمن أضاعه ،وقد غبنت هذه القيم في عصركم فكان ما ترون من فوضى واختلاط" .

إن الشيخ الإبراهيمي يرى أن المعلمين هم ممثلو جمعية العلماء في ناحية من أهم أعمالها، وهي التربية والتعليم لذلك يطلب من المعلمين أن يربوا التلاميذ على:

1- ما ينفعهم وينفع الوطن بهم، فهم أمانة عندكم، وودائع الأمة بين أيديكم.

2- التحاب في الخير، والتآخي في الحق، والتعاون على الإحسان، والصبر على الضيم، والإقدام إلا على الشر، والإيثار إلا بالشرف، والتسامح إلا في الكرامة .

3- استخدام المواهب الفطرية من عقل وفكر وذهن، وعلى صدق التصور وصحة الإدراك ودقة الملاحظة والوقوف عند حدود الواقع.

4- بناء الأمور على أسبابها، والنتائج على مقدماتها علما وعملا.

5- أن يعيشوا بالروح في ذالك الجو المشرق بالإسلام وآدابه وتاريخه ورجاله، وعلى أن يعيشوا بالبدن والروح معا، وعلى أن يلبسوا لبوس عصرهم الذي بيني الحياة على قاعدتين: "إن لم تكن آكلا كنت مأكولا" أو "كن قويا تحترم" .

كما انتبه البشير الإبراهيمي إلى دور الأسرة في العمل التربوي –وخاصة الأم- ودعا إلى تفعيل عملها للمساهمة في جهاد جمعية العلماء حيث يقول: "إن البيت عند الأمم الحية أخت المدرسة كلتاهما مكملة للأخرى فالتلميذ بينهما يتقلب بين عاملين من عوامل التثقيف والتهذيب، أما البيت عند أمتكم فهي ضرة المدرسة، ما تبنيه هذه تهدمه تلك وما تزرعه هذه تقلعه تلك، لأن قعائد البيوت جاهلات وقعائد البيوت هم قواعدها، وويل لبيوتنا من هذه القواعد ما دمن جاهلات ووارحمتاه لكم من هذه الحالة وهذا الموقف، ولا أب يؤيد ويناصر، ولا أم تعين وتؤازر، ويا بؤس للإسلام والعربية بهذه الديار، ويا عجبا لا ينقضي من بعض الأمهات عندنا، فقد أصابهن –مع جهلهن-من الاستعمار مس، فنرى الواحدة منهن تعنى بولدها في ميقات المكتب الفرنسي فتحافظ على الوقت بالدقيقة، وترجل شعره وتغسل أطرافه وتنظف ثيابه، أما في ميقات المدرسة العربية فترسله أشعث مغبرا مختل الهندسة، متأخرا عن الوقت لأنها سخرته في أغراضها، أو متقدما عنه لتستريح من شيطنته". (توفيق جمعات،2010، ص 267)

فعندما يعمل الآباء على نحو وثيق مع المدرسة فإن التلميذ هو الفائز، بل ويكسب جميع الأطراف، وفقا لدرجة التعاون والمشاركة (أحمد الخطيب، رداح الخطيب2006، ص34)

وعلى هذا الأساس استجابت المدارس الحرة التي شكلتها جمعية العلماء المسلمين لمتطلبات التغير الاجتماعي وتحدياته وكيفية مواجهته، بصورة إيجابية، وعملت في الوقت ذاته على أن تكون رائدة لهذا التغيير ومبشرة به، وموجهة إليه عن طريق تربية هذا الجيل الذي تشكله وتعده. (الشماس وعلي محمد2007، ص 67).

المراجع:

1- أحمد الخطيب ورداح الخطيب (2006): المدرسة المجتمعية وتعليم المستقبل، عالم الكتب الحديث الأردن.

2- توفيق جمعات (2010): قبسات من شخصية الإمام الإمام محمد البشير الإبراهيمي، منشورات الحياة الصحافة –الجلفة- الجزائر.

3- محمد البشير الإبراهيمي (2007): عيون البصائر، دار البصائر، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع- الجزائر.

4- عيسى الشماس ومحمود علي محمد (2007): التربية العامة وفلسفة التربية، منشورات جامعة دمشق – سوريا .